

الجذور التاريخية للتفسير المقاصدي للقرآن الكريم

رضوان جمال الأطرش* ونشوان عبده خالد قاندر**

ملخص البحث

يهدف هذا البحث إلى التعريف بالتفسير المقاصدي للقرآن الكريم باعتباره نوعاً مهماً من أنواع التفسير، حيث يجعل المقاصد مكوناً رئيساً من مكونات التفسير، ويتناول البحث إيضاح الجذور التاريخية لهذا النوع التفسيري، مبيناً نشأته التاريخية وكيف أصبح شرطاً لا بد منه للمفسر المعاصر. وقد سلك الباحثان المنهج الاستقرائي والتاريخي، لجمع الأقوال والتعريفات والحقب التاريخية التي سار عليها هذا العلم، ثم المنهج التحليلي للترجيح بين التعريفات، لسير المراحل بعمق، واستنباط أبرز خصائص وفوائد هذا التفسير. وقد خلص البحث إلى نتائج أهمها أن التفسير المقاصدي للقرآن الكريم نوعاً مهماً يعرض هدايات القرآن الكريم ويكشف عن أسراره التي تقود العقل والقلب إلى مصدرية القرآن الربانية ويبين كيف جاء القرآن لمراعاة الصلاح للبشر ودفع الفساد عنهم.

الكلمات المفتاحية: الجذور التاريخية، التفسير، المقاصدي، القرآن، المعاصر.

Abstract

This research aims at providing an introduction of the Qur'anic interpretation in light of the higher intentions of the Shariah (*tafsir maqasidi*) as an important form of the types of interpretation which makes the higher goals of the Shariah important components of interpretation. The research aims to clarify the historical roots of this type of interpretation by explaining its historical inception and how it has become a prerequisite for the contemporary interpreter of the Quran. The researchers followed the inductive and historical approach in

* أستاذ مشارك، قسم القرآن والسنة، كلية معارف الوحي والعلوم الإنسانية، الجامعة الإسلامية العالمية بماليزيا.

** طالب في الدكتوراه، قسم القرآن والسنة، كلية معارف الوحي والعلوم الإنسانية، الجامعة الإسلامية العالمية

بماليزيا.

collecting the statements and definitions and information about the historical periods connected to this type of interpretation. The researchers, furthermore, followed the analytical method in justifying their preference of definitions, to probe in depth, and to extract the main features and benefits of this interpretation. The research summarized the important results of the research; the most important among them is that *tafsir maqasidi* is a very important form of interpretation that displays the guidance of the Quran, reveals the secrets of the Quran that lead mind and heart to the divine origin of the Quran, and explains how the Quran regards goodness for human beings and aspires to keep them corruption free.

Key words: historical roots, interpretation, Makassed, Quran, contemporary.

Abstrak

Penyelidikan ini bertujuan untuk menyediakan pengenalan tafsir al-Quran berdasarkan niat Syariah (*tafsir maqasidi*) sebagai satu jenis tafsiran yang penting untuk menjadikan matlamat Syariah sebagai komponen penting untuk tafsiran. Penyelidikan ini bertujuan untuk menjelaskan akar sejarah bagi tafsiran berjenis ini dengan menerangkan permulaan sejarah dan bagaimana ia telah menjadi suatu syarat untuk pentafsir al-Quran kontemporari. Para penyelidik mengikuti pendekatan induktif dan bersejarah dalam proses pengumpulan penyata dan definisi dan maklumat mengenai jangka-masa sejarah yang berkaitan dengan cara tafsiran ini. Tambahan pula, para penyelidik mengikuti kaedah analisis untuk mewajarkan pilihan takrifan mereka, untuk menyiasat secara mendalam dan untuk mengekstrak ciri-ciri utama dan faedah bagi tafsiran seperti ini. Penyelidikan ini meringkaskan keputusan pentingnya; yang paling penting di antara mereka *tafsir maqasidi* adalah jenis tafsiran yang sangat penting yang memaparkan petunjuk al-Quran, mendedahkan rahsia al-Quran yang membawa fikiran dan hati ke asal-usul ilahi al-Quran, dan menerangkan bagaimana al-Quran mengenai kebaikan kepada manusia dan bercita-cita untuk memastikan manusia bebas dari rasuah.

Kata Kunci: akar sejarah, tafsiran, *maqasid*, al-Quran, kontemporari.

مقدمة البحث:

لما كان الحديث يدور حول التفسير المقاصدي ومعالمه، دعت الحاجة إلى تسليط الضوء ولو بشكل مختصر على جملة من المفاهيم، والإشارات السريعة حول علم التفسير، فمن المعلوم أن تاريخ الحركة العلمية التفسيرية مرَّ بمراحل أربع¹ وهي: المرحلة الأولى: مرحلة التأسيس لعلم التفسير.

المرحلة الثانية: مرحلة التأصيل.

المرحلة الثالثة: مرحلة التفريع.

المرحلة الرابعة: وأخيراً مرحلة التجديد، ولكل مرحلة من المراحل السابقة

مميزاتها وخصائصها ومنهجيتها ليس من المناسبة الحديث عنها في هذا المقام.

ولقد اهتمَّ المفسرون عبر تلك المراحل بوضع القواعد المنهجية التي ساروا

عليها في تفاسيرهم، وكشف الباحثون القناع عن معظم أسس تلك المناهج والطرق،

وأبانوها بالدراسات والتحقيقات، وبقي بعضها لم يؤصل له، ولم يوف حقه من

التأصيل والتعريف، ومن ذلك التفسير المقاصدي وبيان أسسه، وقواعده، وجذوره

التاريخية، فإن ما كتب فيه هو عبارة عن أشياء متناثرة لا يجد فيها الباحث مبتغاه،

ولا تعد من قبيل الدراسات العلمية الوافية.

والحديث عن التفسير المقاصدي باعتباره نوعاً من أنواع التفسير في مرحلة

التجديد يعتبر أمراً في غاية الأهمية، وذلك لأن تناول المقاصد القرآنية من خلال

التفسير يضيف على النص القرآني حيويته وفاعليته، وينفي عن تفسيره الجمود، ولقد

¹ انظر: صلاح عبد الفتاح الخالدي، تعريف الدارسين بمناهج المفسرين، (دمشق: دار القلم، ط3، 2008/1429م)، ص35.

اعترض الشيخ محمد الغزالي على طريقة المتقدمين في تفسيرهم للقرآن، حين توسعوا في استنباط الأحكام الفقهية دون المعاني والحكم والمقاصد منها، فقال: "هناك التفسير الفقهي للقرآن، وهو تفسير طوّع الآيات لأحكام الفقهاء وطريقتهم في الاستنباط، ولم يهتم إلا بآيات الأحكام التشريعية، واقتصر في ذلك على الحكم الشرعي، دون النظر إلى المقاصد الأخرى، وهذا فيه شيء يستدعي الاستدراك"². ولقد عاشت الحركة التفسيرية حقاً من الزمن تدين بهذه النظرة الجزئية، حتى جاء علماء المقاصد³ وكشفوا شيئاً من مقاصد القرآن الكريم في تشريع الأحكام خصوصاً، وفي التفسير عموماً، إلا أن الحاجة لا تزال ماسة في التأصيل للتفسير المقاصدي، والتعريف بمفهومه، وأبرز معاله.

المبحث الأول: تعريف التفسير المقاصدي في اللغة واصطلاح المفسرين

يتناول هذا المبحث تعريف التفسير المقاصدي للقرآن الكريم، وذلك من خلال التعرض لمعنى التفسير في اللغة والاصطلاح، والمقاصد في اللغة والاصطلاح، والتعرض لمعنى مقاصد القرآن، ومن ثم الوصول إلى تعريف للتفسير المقاصدي، ومما ينبغي الإشارة إليه أن لفظ المقاصد ورد في القرآن الكريم بمعان مختلفة، واشتهر هذا اللفظ على ألسنة العلماء المتقدمين، كالإمام الجويني، والإمام الغزالي، والقاضي العز بن عبد السلام، حتى اكتمل واتضح على يدي الإمام الشاطبي، غير أن تعريف لفظ المقاصد من الناحية الاصطلاحية ظل يكتنفه الغموض حيناً من الدهر، ثم اتسم بالوضوح في

² محمد الغزالي، كيف نتعامل مع القرآن، (المعهد العالمي للفكر الإسلامي، ط3، 1413هـ/1992م)، ص40.

³ يذكر أن أول من أحى علم المقاصد، ونظر للقرآن الكريم نظرة مقاصدية مغايرة للنظرة الفقهية التجريدية هو الإمام الشاطبي.

العصر الحديث، فبدت مفاهيمه تنضج عند علماء المقاصد ومنهم: الإمام الطاهر ابن عاشور، والشيخ الشهيد حسن البنا، وعلال الفاسي، وغيرهم.

تعريف التفسير لغة:

التفسير مصدر على وزن تفعيل، وفعله الماضي رباعي مضعف: فسّر، تقول: فسّر، يُفسّر، تُفسّراً. ولقد جاء في لسان العرب لفظ "فسّر" بمعنى: "الفسرُ البيان، يقال: فسّر الشيء يُفسّره - بالكسر - وتفسّره - بالضم - فسراً، وفسّره أبانه. وقوله عز وجل: ﴿وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا﴾ [الفرقان: 33]. الفسرُ كشف المغطى، والتفسير كشف المراد عن اللفظ المشكل"⁴. وقال ابن فارس: "الفسرُ: كلمة تدل على بيان شيء وإيضاحه. تقول: فسرتُ الشيء وفسرته"⁵. وقال الراغب الأصفهاني: "الفسرُ إظهار المعنى المعقول، والتفسير في المبالغة كالفسر"⁶.

ومما سبق من المعاني اللغوية يتضح لنا أنّ من معاني التفسير في اللغة: البيان، والكشف، والإظهار، والتوضيح.

التفسير في الاصطلاح:

تعددت التعريفات الاصطلاحية للتفسير، وسنقتصر هنا على ذكر ثلاثة من التعريفات المشهورة مع الترجيح لأحدها.

⁴ محمد بن مكرم الأفريقي المصري ابن منظور، لسان العرب، (بيروت: دار صادر، ط1، د.ت)، ج5، ص55.

⁵ أبو الحسين أحمد بن فارس، معجم مقاييس اللغة، تحقيق: عبد السلام محمد هارون، (دار الفكر، ط1، 1399هـ/1979م)، مادة فسر، ج4، ص504.

⁶ الراغب الأصفهاني، المفردات في غريب القرآن، تحقيق: محمد سيد كيلاقي، (لبنان: دار المعرفة، د.ط، د.ت)، ص380.

قال الإمام الزركشي في تعريف علم التفسير: "التفسير علم يعرف به فهم كتاب الله المنزل على نبيه محمد ﷺ وبيان معانيه، واستخراج أحكامه وحكمه، واستمداد ذلك من علم اللغة والنحو والتصريف وعلم البيان وأصول الفقه والقراءات، ويحتاج لمعرفة أسباب النزول والناسخ والمنسوخ"⁷.

وقال الشيخ الزرقاني في تعريف التفسير: "علم يبحث فيه عن القرآن الكريم من حيث دلالاته على مراد الله تعالى بقدر الطاقة البشرية"⁸.

وعرفه الإمام محمد الطاهر بن عاشور بقوله: "التفسير: اسم للعلم الباحث عن بيان معاني ألفاظ القرآن، وما يستفاد منها، باختصارٍ أو توسُّعٍ"⁹. ولعل التعريف الأخير هو الأنسب لمعنى الاتجاه المقاصدي في التفسير، ولو أن ابن عاشور وسع التعريف قليلاً لكان أجمل وأكمل.

أسباب الترجيح:

1. أن ابن عاشور ركز في تعريفه على الجانب اللغوي، ومعاني الألفاظ، فالمعنى اللغوي غالباً ما يكون أوسع من المعنى الشرعي، وأبلغ في حمل الوجوه على معاني متعددة يكون فيها التيسير، ورفع المشقة والحرص.

⁷ بدر الدين محمد بن عبد الله الزركشي، البرهان في علوم القرآن، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، (بيروت: دار المعرفة، دار إحياء الكتب العربية، ط1، 1376هـ/1957م)، ج1، ص13.

⁸ محمد عبد العظيم الزرقاني، مناهل العرفان في علوم القرآن، (مصر: مطبعة عيسى البابي الحلبي وشركاه، ط1، د.ت)، ج2، ص3.

⁹ محمد الطاهر ابن عاشور، التحرير والتنوير، (تونس: دار سحنون للنشر والتوزيع، د.ط، 1997م)، ج1، ص11.

2. أن ابن عاشور قارب ذكر المقاصد حين ذكر في تعريفه ما يستفاد من المعاني اللغوية للآيات، وفسح المجال للحديث عن فوائد الآيات حين قال: "باختصارٍ أو توسع".

والخلاصة في تعريف علم التفسير هي: أن التفسير هو ذلك العلم الذي يتم من خلاله فهم مراد الله تعالى من القرآن، وبيان معانيه، وما يستفاد منها، والكشف عن الأحكام الواردة، ومقاصدها وغاياتها، ورفع الغموض عن ألفاظ الآيات القرآنية. وبعد هذا الاستعراض لمعنى التفسير لغةً واصطلاحاً ننتقل إلى تعريف المقاصد لغةً واصطلاحاً.

تعريف المقاصد لغة:

جاءت كلمة مقاصد على وزن مفاعل، وترجع كلمة المقاصد في معناها اللغوي إلى الفعل "قَصَدَ" تقول: قَصَدَ، يَقْصُدُ، قَصْدًا. ومنه تنصرف جميع الاشتقاقات، كالقَصْدِ، والقاصِدِ، والمَقاصِدِ، والأقْتِصَادِ، وغيرها. جاء في لسان العرب: "القَصْدُ: استقامة الطريق. قَصَدَ يَقْصُدُ قَصْدًا فهو قاصِدٌ. وقوله تعالى: ﴿وَعَلَى اللَّهِ قَصْدُ السَّبِيلِ﴾ [النحل:9]. أي على الله تبيين الطريق المستقيم، والدعاء إليه بالحجج والبراهين الواضحة"¹⁰. قال ابن فارس: "قَصَدَ: القاف والصاد والبدال أصول ثلاثة، يدل أحدها على إتيان شيء وأمه، والآخر على اكتناز في الشيء. فالأصل: قَصَدْتُهُ قَصْدًا وَمَقْصَدًا"¹¹. قال الراغب الأصفهاني: "قَصَدَ: القَصْدُ استقامة الطريق، يقال: قَصَدْتُ قَصْدَهُ أي نَحَوْتُ نَحْوَهُ"¹². وقد جاء لفظ (قَصَدَ)

¹⁰ ابن منظور، لسان العرب، ج3، ص353.

¹¹ ابن فارس، معجم مقاييس اللغة، ج5، ص95.

¹² المرجع السابق، ص404.

في القرآن في ستة مواضع¹³، يفيد أغلبها التوسط والاستقامة والاعتدال، وهي كالاتي:

- 1- أَقْصِدْ: في قوله تعالى: ﴿وَأَقْصِدْ فِي مَشْيِكَ وَاغْضُضْ مِنْ صَوْتِكَ﴾ [لقمان:19]، ومعناه توسط فيه، والقصد ما بين الإسراع والبطء¹⁴.
- 2- قَصِدْ: في قوله تعالى: ﴿وَعَلَى اللَّهِ قَصْدُ السَّبِيلِ وَمِنْهَا حَآئِرٌ﴾ [النحل: 9]، أي على الله بيان قصد السبيل، فحذف المضاف وهو البيان، والسبيل هو الإسلام، ومعنى الآية: على الله بيان الإسلام بالرسول والحجج والبراهين، وقصد السبيل معناه استقامة الطريق، يقال طريق قاصد، أي مستقيم يؤدي إلى المطلوب¹⁵.
- 3- قَاصِدًا: في قوله تعالى: ﴿لَوْ كَانَ عَرَضًا قَرِيبًا وَسَفَرًا قَاصِدًا لَاتَّبَعُوكَ﴾ [التوبة: 42]، أي سفرًا سهلاً معلوم الطريق.
- 4- مُقْتَصِدٌ: في قول الله تعالى: ﴿فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ فَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ﴾ [لقمان:32]، أي عدل في العهد، وفي البر بما عاهد عليه في البحر، وقوله تعالى: ﴿فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ وَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ﴾ [فاطر:32]، أي الملازم للقصد وهو ترك الميل.

¹³ محمد فؤاد عبد الباقي، المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم، (بيروت: دار الجليل، د.ط، د.ت)، ص545.

¹⁴ محمد بن أحمد القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، (القاهرة: دار الكتب المصرية، ط3، 1387هـ/1967م)، ج14، ص71.

¹⁵ المصدر نفسه، ج10، ص81.

5- مُقْتَصِدَةٌ: في قوله تعالى: ﴿مِنْهُمْ أُمَّةٌ مُّقْتَصِدَةٌ﴾ [المائدة: 66]، أي

منهم قوم لم يكونوا من المؤذنين المستهزئين، والاقتصاد: الاعتدال في العمل.

وبناءً على ما سبق من المعاني اللغوية لمعنى المقاصد يمكن القول بأن القَصْدَ والمُقَصَّدَ والمقاصد في الأصل تعني العزم والتوجه نحو الشيء ولها استعمالات أخرى متعددة منها: الاستقامة، والاعتدال والتوسط، والاعتماد والأُمُّ، وتعتبر الحكمة من أقرب تلك المعاني للمقاصد، وورودها في القرآن أكثر¹⁶، ولها معاني أخرى ليس المقام مقام بسطها. ونأتي الآن إلى بيان معنى المقاصد اصطلاحاً.

تعريف المقاصد اصطلاحاً:

يستعمل الأصوليون عادة لفظ المقاصد تحت معنى الهدف والغاية من الأحكام التشريعية، وهناك العديد من الألفاظ المستعملة بمعنى المقاصد ومنها: الحِكْمُ والحكمة، والأسرار، والغايات، والأهداف، والأغراض¹⁷. ولا بد من أن نفرق بين مقاصد الشريعة عموماً، ومقاصد القرآن خصوصاً، إذ أن مقاصد القرآن هي أصل مقاصد الشريعة، وعليها تدور مقاصد الشريعة، ومنها تستمد. فمن تعريفات العلماء لمقاصد الشريعة ما يأتي بيانه:

¹⁶ انظر: عبد الكريم حامدي، المدخل إلى مقاصد القرآن الكريم، (الرياض: مكتبة الرشد ناشرون، ط1، 1428هـ/2007م)، ص37.

¹⁷ انظر: عبد الكريم حامدي، مقاصد القرآن من تشريع الأحكام، (بيروت: دار ابن حزم للطباعة والنشر والتوزيع، ط1، 1429هـ/2008م)، ص20-21.

أولاً: ما ذكره الإمام الشاطبي¹⁸ في معرض ذكر مفهوم المقصود الشرعي: "أنَّ المقصود الشرعي من الخطاب الوارد على المكلفين تفهيم ما لهم وما عليهم، مما هو مصلحة لهم في دنياهم وأخرهم، وهذا يستلزم كونه بيئاً واضحاً لا إجمال فيه ولا اشتباه"¹⁹.

وقد وضع الإمام الشاطبي ثلاث جهات لمعرفة القصد الشرعي وهي: إرادة التكليف، والمقصود الدلالي من الخطاب الشرعي، والمقصود الشرعي من الحكم²⁰.
ثانياً: تعريف الإمام محمد الطاهر بن عاشور حيث يعرف المقاصد العامة للشريعة²¹ بقوله: "مقاصد التشريع العامة هي المعاني والحكم الملحوظة للشارع في جميع أحوال التشريع أو معظمها؛ بحيث لا تختص ملاحظتها بالكون في نوع خاص من أحكام الشريعة"²².

¹⁸ مع أن الإمام الشاطبي يصنف أنه أول من أرسى دعائم علم المقاصد إلا أنه لم يذكر تعريفاً واضحاً للمقاصد يمكن الاعتماد عليه في هذا الباب، وجل ما ذكره هو عبارة عن قواعد وضوابط، وكذلك معظم من سبقه في الحديث عن المقاصد كالإمام الجويني، والإمام الغزالي، وسلطان العلماء العز بن عبد السلام.

¹⁹ إبراهيم بن موسى الشاطبي، الموافقات في أصول الشريعة، تحقيق: أبو عبيدة مشهور بن حسن آل سلمان، (دار ابن عفا، ط1، 1417هـ/1997م)، ج4، ص140.

²⁰ انظر: إسماعيل الحسني، نظرية المقاصد عند الإمام محمد الطاهر بن عاشور، (المعهد العالمي للفكر الإسلامي، ط1، 1416هـ/1995م)، ص114-115.

²¹ لم يعط ابن عاشور تعريفاً محدداً للمقاصد وإنما قسمها إلى قسمين: مقاصد الشرع، ومقاصد للناس في تصرفاتهم، ثم قسم مقاصد الشرع إلى قسمين: عامة وخاصة، وقد اقتصر على تعريف المقاصد العامة فقط.

²² محمد الطاهر ابن عاشور، مقاصد الشريعة الإسلامية، تحقيق: محمد الطاهر الميساوي، (عمَّان: دار النفائس، ط2، 1421هـ/2001م)، ص251.

ثالثاً تعريف الريسوني حيث يرى: "إن مقاصد الشريعة هي الغايات التي وضعت الشريعة لأجل تحقيقها، لمصلحة العباد"²³، ولعل التعريف الأخير يشمل مقاصد الشريعة الجزئية والكلية، ويتسم بالوضوح والبساطة.

وأما مقاصد القرآن فإن ما ذكره المتقدمين - حسب اطلاع الباحثين - حول تعريف المقاصد القرآنية لا يكتمل أن يكون تعريفاً علمياً، إلا أن ورود المصطلح لم تخل منه كتب المتقدمين والمعاصرين، فقد جاء هذا اللفظ عند الإمام العز بن عبد السلام في مواضع عدة من كتابه القواعد، كقوله: "معظم مقاصد القرآن الأمر باكتساب المصالح وأسبابها، والزجر عن اكتساب المفاصد وأسبابها"²⁴.

وقوله كذلك: "ولو تتبعنا مقاصد ما في الكتاب والسنة، لعلمنا أن الله أمر بكل خير دقه وجله، وزجر عن كل شر دقه وجله، فإن الخير يعبر به عن جلب المصالح ودرء المفاصد، والشر يعبر به عن جلب المفاصد ودرء المصالح"²⁵، وقد ذكر هذا المصطلح أيضاً الإمام ابن عاشور في مواضع عدة ومنها ما ذكره في مقدمات التحرير والتنوير - المقدمة الرابعة - فيما يكون عليه غرض المفسر، حيث قال: "فغرض المفسر بيان ما يصل إليه أو ما يقصده من مراد الله تعالى في كتابه بأتم بيانٍ يحتمله المعنى، ولا يأباه اللفظ من كل ما يوضح المراد من مقاصد القرآن"²⁶.

²³ أحمد الريسوني، نظرية المقاصد عند الإمام الشاطبي، (الدار العالمية للكتاب الإسلامي، والمعهد العالمي للفكر الإسلامي، ط4، 1416هـ/1995م) ص19.

²⁴ العز ابن عبد السلام، قواعد الأحكام في مصالح الأنام، تحقيق: محمود بن التلاميذ الشنقيطي، (بيروت: دار المعارف، ط1، د.ت) ج1، ص7.

²⁵ المرجع السابق، ج2، ص160.

²⁶ ابن عاشور، التحرير والتنوير، ج1، ص41.

وكذلك قوله في تفسير سورة الفاتحة: "أنها تشتمل محتوياتها على أنواع مقاصد القرآن وهي ثلاثة أنواع: الشاء على الله ثناءً جامعاً لوصفه بجميع المحامد، وتنزيهه عن جميع النقائص، وإثبات تفرده بالإلهية، وإثبات البعث والجزاء"²⁷، وقد ذكر هذا اللفظ غير واحد من المعاصرين من أمثال الشيخ رشيد رضا في تفسير المنار²⁸، والإمام حسن البنا في مقاصد القرآن²⁹، وغيرهم.

وقد وقف الباحثان على تعريف للمقاصد القرآنية لأحد العلماء المعاصرين حيث يعرف مقاصد القرآن بقوله: "مقاصد القرآن هي الغايات التي أنزل الله القرآن لأجلها تحقيقاً لمصالح العباد"³⁰، وهي محاولة جميلة استفاد فيها من تعريفات العلماء لمقاصد الشريعة عموماً، وهو تعريف قريب من تعريف الدكتور الرئسوني المذكور سلفاً في تعريف مقاصد الشريعة.

وبناءً على ما سبق من بيان لمصطلح مقاصد القرآن يرى الباحثان أن مقاصد القرآن هي: الأسرار والحكم والغايات التي نزل القرآن لأجل تحقيقها جلباً للمصالح، ودفعاً للمفاسد، وهي واضحة في جميع القرآن أو معظمه.

ونخلص مما سبق بالتعريف بالتفسير لغةً واصطلاحاً، والمقاصد لغةً واصطلاحاً إلى السؤال الآتي: هل هناك تعريفاً معتبراً عند أهل التفسير للتفسير المقاصدي؟ إن التفسير المقاصدي يعتبر تفسيراً تجديدياً، بالرغم من أن تاريخ المقاصد قديم قدم التشريع، واستعمال لفظ المقاصد ومعانيه مشهور منذ القدم إلا أن إدخال

²⁷ المرجع السابق، ج1، ص133.

²⁸ انظر: محمد رشيد رضا، تفسير القرآن الحكيم، (القاهرة: دار المنار، ط2، 1366هـ/1947م)، ج1، ص10.

²⁹ انظر: حسن البنا، مقاصد القرآن الكريم، ص28.

³⁰ حامدي، مقاصد القرآن من تشريع الأحكام، ص29.

المقاصد في التفسير ظهر في القرون المتأخرة³¹، ابتداءً من عصر محمد عبده، ورشيد رضا، وانتهاءً بسيد قطب وابن عاشور، وغيرهم ممن كتب في التفسير المعاصر، غير أن هؤلاء —رحمهم الله جميعاً— لم يوجد في تفاسيرهم التعريف الواضح لهذا النوع من التفسير، بالرغم من أن منهجيتهم واضحة وساطعة، وطريقتهم في تناول المقاصد لا لبس فيها، ولعل الإمام ابن عاشور حاول في تعريفه للتفسير بمعناه الاصطلاحي أن يجد ملامح هذا النوع من التفسير، بتعريفه للتفسير في مقدمات تفسيره، ولكن يظل تعريفه المذكور تعريفاً للتفسير بمعناه العام، وقد سبق بيان ما يشتمل عليه تعريفه وما يميزه عن غيره.

ومما سبق ذكره من تعريفات لمقاصد الشريعة عموماً عند علماء المقاصد والمفسرين، وبناء على التعريفات السابقة لمقاصد القرآن خصوصاً يمكن تعريف التفسير المقاصدي للقرآن الكريم بأنه³²:

[هو ذلك النوع من التفسير الذي يبحث في معاني ألفاظ القرآن الكريم، وتوسيع دلالاتها اللغوية، مع بيان الحكم والغايات التي أنزل من أجلها القرآن وشرعت من أجلها الأحكام].
ويمكن تقسيم التعريف إلى شقين:

³¹ سوف يتم بسط القول في نشأة التفسير المقاصدي وتطوره في المبحث القادم من هذا الفصل بإذن الله تعالى.
³² هذا التعريف من اجتهاد الباحثين، إذ لم يعثر على تعريف مستقل للتفسير المقاصدي، وهو بحاجة إلى إثراء وتطوير، ويعتبر هذا التعريف امتداداً لما كتبه الباحث في رسالته للماجستير، انظر: نشوان عبده خالد، معالم التفسير المقاصدي للقرآن الكريم: آيات الخمر نموذجاً، (ماليزيا: الجامعة الإسلامية العالمية، رسالة ماجستير غير منشورة، يونيو 2010م).

الشق الأول: ويتضمن كشف الدلالات اللغوية لألفاظ القرآن الكريم، وبهذا يستطيع المفسر أن يفسر القرآن وفقاً للمقاصد العامة من القرآن، فإن احتمال الألفاظ لأوجه لغوية متعددة، وقراءات متواترة، فيه يسر ورفع للمشقة الناتجة عن تفسير واحدي للفظ، وهذا المنهج التيسيري من المقاصد التي جاء بها القرآن.

الشق الثاني: ويتضمن إبراز الحكم والأسرار والغايات التي أنزل الله تعالى من أجلها القرآن، وشرع سبحانه من أجلها الأحكام فإن ذلك إظهار لعظمة القرآن، وبيان للمقاصد التي جاء لتحقيقها، وبهذا يستطيع المفسر أن يفسر القرآن وفقاً للمقاصد الخاصة أو الجزئية التي دعا لها القرآن وأثبتها من خلال ما جاء في آيات الأحكام، والحدود، والمعاملات، أو من خلال العبادات عموماً، والدعوة إلى الأخلاق، وإصلاح الفرد، والمجتمع، وكذلك من خلال القصص القرآني.

ولا يعني ما ذكر أن يترك المفسر مناهج التفسير الأخرى التي يكتمل بها وضوح الحكم، وفهم الآية كالمأثور والسياق، وأسباب النزول، بل يستفاد من ذلك، ويوظف في سبيل تقوية النهج المقاصدي الذي يرمى إليه بدون شذوذ أو خروج على المؤلف، بل إن كل قول تفسيري يصب في فحوى الخطاب المقاصدي ينبغي أن يستدل به، وهذا ما نهجه الإمام محمد عبده وتلميذه رشيد رضا في تفسير المنار، والذي سار عليه ابن عاشور في تفسيره التحرير والتنوير.

المبحث الثاني: النشأة العلمية للتفسير المقاصدي

يتناول هذا المبحث الحديث حول نشأة التفسير المقاصدي، وأبجديات تطوره، مع البدء بالحديث عن نشأة التفسير عموماً، ومن ثم الوصول إلى المراد حول الجذور التاريخية للتفسير المقاصدي، وقصة تطوره، وكيف كانت بداياته، فالتفسير المقاصدي

يعتبر امتداداً للحركة العلمية التفسيرية التي بدأت في عهد المصطفى ﷺ، وتتابعت آفاق التطوير والتجديد فيها، مع ما حصل لها من مدٍ وجزر، ونمو وتوقف، ومن هذا المنطلق سيكون الحديث أولاً عن نشأة التفسير عموماً، ثم يردف بالحديث حول مراحل نشوء التفسير المقاصدي.

أولاً: نشأة التفسير عموماً:

نشأ التفسير عبر مراحل متعددة يمكن حصرها في أربع تتضمن عصر النبي ﷺ وصحابته، وعصر التابعين، وعصر التدوين، والعصر الحديث، وسوف نتناول كل مرحلة باختصارٍ وإيجاز:

المرحلة الأولى للتفسير:

وهي مرحلة التفسير في عهد النبي ﷺ وصحابته الكرام. لقد جرت حكمة الله في الأمم أنه سبحانه وتعالى يرسل كل رسول بلسان قومه حتى يفهموا رسالة الله إليهم ويتبعوا ما يأمرهم به، قال تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ فَيُضِلُّ اللَّهُ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ [سورة إبراهيم: 4].

والقرآن الكريم نزل بلغة العرب، فألفاظ القرآن عربية إلا نزرأ يسيراً لا يخرج القرآن عن كونه عربياً³³. ولقد كان الصحابة رضوان الله عليهم يفهمون القرآن

³³ ومن الكلمات التي وردت في القرآن ما ذكره الزركشي في البرهان، حيث قال: "فمن ذلك الطور جبل بالسريانية وطفقاً أي قصداً بالرومية، والقسط والقسطاس العدل بالرومية: ﴿إِنَّا هَدَيْنَا إِلَيْكَ﴾ [الأعراف: 156]. أي تبنا بالعبرانية والسجل الكتاب بالفارسية، والرقيم اللوح بالرومية، والمهل عكر الزيت بلسان أهل المغرب، والسندس الرقيق من الستر بالهندية، والإستبرق الغليظ بالفارسية بحذف القاف السري النهر الصغير باليونانية، طه أي طأ يا رجل بالعبرانية، يُصهرُ أي ينضح بلسان أهل المغرب، سينين الحسن

بالسليقة العربية، مع التفاوت بينهم في مقدار ذلك الفهم، وقد ردّ الذهبي على ابن خلدون من أن العرب تفهم كل ما في القرآن حيث يقول ابن خلدون في مقدمته: "إن القرآن نزل بلغة العرب، وعلى أساليب بلاغتهم، فكانوا كلهم يفهمونه ويعلمون معانيه في مفرداته وتراكيبه"³⁴، وعلل ذلك بأن نزول القرآن بلغة العرب لا يقتضي أن العرب كلهم يفهمون مفرداته وتراكيبه، ومن ذلك ما أخرجه أبو عبيد في الفضائل عن أنس رضي الله عنه: "أن عمر بن الخطاب قرأ على المنبر: ﴿وَفَاكِهَةً وَأَبًّا﴾ [عبس: 31] .. فقال: هذه الفاكهة قد عرفناها، فما الأب؟. ثم رجع إلى نفسه، فقال: إن هذا هو التكلف يا عمر"³⁵. وما روى من أن عمراً أيضاً كان على المنبر فقرأ: ﴿أَوْ يَأْخُذَهُمْ عَلَى تَخَوُّفٍ﴾ [النحل: 44]، ثم سأل عن معنى التخوف، فقال له رجل من هذيل: التخوف عندنا التَّنْقُصُ³⁶.

بالنبطية، المشكاة الكوة بالحيشية وقيل الزجاجاة تسرج الدرري المضيء بالحيشية، الأليم المؤلم بالعبرانية: ﴿نَاطِرِينَ إِنَاءُ﴾ [الأحزاب: 53] أي نضجه بلسان أهل المغرب: ﴿الْمِلَّةِ الْآخِرَةِ﴾ [ص: 7] أي الأولى بالقبطية والقبط يسمون الآخرة الأولى والأولى الآخرة: ﴿وَرَأَاهُمْ مَلِكٌ﴾ [الكهف: 79] أي أمامهم. (الزرکشي، البرهان في علوم القرآن، ج1، ص288).

³⁴ عبد الرحمن بن خلدون، مقدمة ابن خلدون، (بيروت: دار الكتب العلمية، ط8، 1424هـ/2002م)، ص348. وانظر: محمد حسين الذهبي، التفسير والمفسرون، (القاهرة: مكتبة وهبة، ط7، 2000م)، ج1، ص28-29.

³⁵ أخرجه الحاكم، محمد بن عبد الله أبو عبد الله النيسابوري، في المستدرک علی الصحیحین، تحقيق: مصطفى عبد القادر عطا (بيروت: دار الكتب العلمية، ط1، 1411هـ/1990م) ج2، ص559، رقم 3897. وقال: هذا حديث صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه. ووافقه الذهبي. وانظر: أحمد بن محمد بن المهدي بن عجبية الحسيني الإدريسي الشاذلي الفاسي أبو العباس، البحر المديد، (بيروت: دار الكتب العلمية، ط2، 2002م/1423هـ)، ج8، ص370.

³⁶ أخرجه ابن أبي شيبة في مصنفه، باب من كره أن يفسر القرآن، برقم 30729.

وما أشكل على الصحابة من شيء رجعوا فيه إلى النبي ﷺ وسألوه³⁷، والاجتهاد وقوة الاستنباط عند الصحابة فلقد ملكوا أدوات الاجتهاد³⁸، وتوافرت لديهم قوة الاستنباط³⁹، ويعلمون من أسرار الشريعة ومقاصدها ما يؤهلهم لذلك، وأخبار أهل الكتاب من اليهود والنصارى فالقرآن قصّ الكثير من أخبار أهل الكتاب وأحوالهم⁴⁰.

³⁷ ومن جملة ذلك ما رواه أحمد والشيخان وغيرهما عن ابن مسعود قال: "لما نزلت هذه الآية: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ﴾ [الأنعام:82]. شق ذلك على الناس فقالوا: يا رسول الله، وأينا لا يظلم نفسه؟ قال: "إنه ليس الذي تعنون، ألم تسمعوا ما قال العبد الصالح: إن الشرك لظلم عظيم؟ إنما هو الشرك" (انظر: محمد بن إسماعيل البخاري، **الجامع الصحيح المختصر**، تحقيق: مصطفى ديب البغا، (بيروت: دار ابن كثير، الطبعة الثالثة، 1407هـ/1987م) باب قوله تعالى: ﴿وَاتَّخَذَ اللَّهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلًا﴾ [النساء:125]، ج3، ص1226، رقم1221.

³⁸ وهي كما ذكرها الذهبي: "معرفة أوضاع اللغة وأسرارها، معرفة عادات العرب، معرفة أحوال اليهود والنصارى في جزيرة العرب وقت نزول القرآن، قوة الفهم وسعة الإدراك". انظر: الذهبي، **التفسير والمفسرون**، ج1، ص45.

³⁹ ومن ذلك ما رواه البخاري من طريق سعيد بن جبيرة عن ابن عباس قال: "كان عمر يُدخلني مع أشياخ بدر، فكان بعضهم وجدّ في نفسه وقال: لِمَ يُدخِل هذا معنا وإن لنا أبناء مثله؟ فقال عمر: إنه من أعلمكم، فدعاهم ذات يوم فأدخلني معهم فما رأيت أنه دعاني فيهم إلا ليريهم، فقال: ما تقولون في قوله تعالى: ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ﴾ [النصر:1]، فقال بعضهم: أمرنا أن نحمد الله ونستغفره إذا نصرنا وفتح علينا، وسكت بعضهم ولم يقل شيئاً، فقال لي: أكذلك تقول يا بن عباس؟ فقلت: لا، فقال: ما تقول؟ قلت: هو أجل رسول الله ﷺ أعلمه الله له، قال: ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ﴾ [النصر:1] فذلك علامة أجلك، ﴿فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا﴾ [النصر:3] فقال عمر: لا أعلم منها إلا ما تقول". انظر: البخاري، **صحيح الجامع المختصر**، باب منزل النبي ﷺ، ج4، ص1563، رقم4043.

⁴⁰ أشار الذهبي إلى أن رجوع الصحابة إلى هذا المصدر لم يكن على درجة من الأهمية مثل المصادر الثلاثة الأولى، وذلك لوقوع التحريف في التوراة والإنجيل. انظر: الذهبي، **التفسير والمفسرون**، ج1، ص48.

ويمكن لنا أن نستنبط أدوات الاجتهاد في التفسير عند الصحابة لتكون على

الشكل الآتي:

- أ. معرفة أوضاع اللغة وأسرارها .
- ب. معرفة عادات العرب وأحوال اليهود والنصارى.
- ج. قوة الفهم وسعة الإدراك.
- د. معرفتهم أسباب التزول.

مميزات وخصائص التفسير في عصر الصحابة:

يمتاز التفسير في هذه المرحلة بالخصائص التالية:

1. لم يفسر القرآن كله، وإنما فسر بعض منه، وترك الأمر للناس أن يتدبروا في آياته ليزيلوا ما أشكل لهم.
2. قلة الاختلاف بين الصحابة في فهم معاني القرآن.
3. الاكتفاء بالمعنى الإجمالي دون الخوض في أعماق التفاصيل، كحادثة عمر مع الأب.
4. الاعتماد على اللغة العربية والشعر في توضيح المعاني.
5. ندرة الاستنباط العلمي للأحكام الفقهية من الآيات القرآنية وعدم وجود الانتصار للمذاهب الدينية بما جاء في كتاب الله.
6. التدوين لم يبدأ في هذا العصر، بل بدأ في القرن الثاني.
7. اتخذ التفسير في هذه المرحلة شكل الحديث، بل كان جزءاً منه وفرعاً من فروعها، ولم يتخذ التفسير له شكلاً منظماً.

المرحلة الثانية: انتهت المرحلة الأولى من التفسير بموت الصحابة رضي الله عنهم أجمعين، وبدأت مرحلة التابعين الذين أخذوا عن الصحابة التفسير، وتعلموا على أيديهم،

فصارت لهم يد الطول في التفسير يرجعون فيه إلى صحيح السنة، وأقوال الصحابة، ولاجتهداتهم ونظرتهم إلى مقاصد القرآن وعموم مقاصد الشريعة. قال الذهبي: "قد روت لنا كتب التفسير كثيراً من أقوال هؤلاء التابعين في التفسير، قالوها بطريق الرأي والاجتهاد، ولم يصل إلى علمهم شيء فيها عن رسول الله صلى الله عليه وسلم، أو عن أحد من الصحابة"⁴¹.

وقد شهد عصر التابعين توسع الدولة الإسلامية، ودخول كثير من الناس في الإسلام، فاستجدت الكثير من المسائل، واحتاج الناس إلى تفسير الكثير من الآيات التي لم تكن قد فسرت في عهد الصحابة الكرام، إذ إن تفسير الصحابة كما سلف اقتصر على البعض دون الكل، فتربع التابعون على عرش القول فيما ليس فيه عن الصحابة قول، وأعملوا نظرات عقولهم في الاجتهاد عما أشكل⁴²، وأسدلوا الستار عما أعضل، "فزادوا في التفسير بمقدار ما زاد من غموض، ثم جاء من بعدهم فأتموا تفسير القرآن تبعاً، معتمدين على ما عرفوه من لغة العرب ومناحيهم في القول، وعلى ما صح لديهم من الأحداث التي حدثت في عصر نزول القرآن... وغير هذا من أدوات الفهم ووسائل البحث"⁴³.

واتسعت رقعة المسلمين، فاتسعت مع ذلك رقعة العلم، وبدأت نشأت المدارس التفسيرية المتعددة، فكانت مدرسة التفسير في مكة على يد ابن عباس رضي

⁴¹ الذهبي، التفسير والمفسرون، ج1، ص76.

⁴² وأشهر ما ورد في ذلك عن ابن عباس رضي الله عنهما، انظر: محمد هادي معرفة، التفسير والمفسرون في ثوبه القشيب، ج1، ص267-268.

⁴³ الذهبي، التفسير والمفسرون، ج1، ص76.

الله عنهما⁴⁴، ونشأت مدرسة التفسير في المدينة على يد أبي بن كعب رضي الله عنه⁴⁵، و في العراق على يد ابن مسعود رضي الله عنه⁴⁶، وهذه الثلاث المدارس أشهر مدارس التفسير آنذاك.

وتمتاز مدرسة أهل العراق بأنها مدرسة أهل الرأي، "ويقول العلماء: إن ابن مسعود رضي الله عنه هو الذي وضع الأساس لهذه الطريقة في الاستدلال، ثم توارثها عنه علماء العراق"⁴⁷، ولذلك فقد تأثر التفسير بهذه النزعة المقاصدية في الاجتهاد والقياس ومن الطبيعي — كما عبر عن ذلك الذهبي — : "أن تؤثر هذه الطريقة في مدرسة التفسير، فيكثر تفسير بالرأي والاجتهاد، لأن استنباط مسائل الخلاف الشرعية، نتيجة من نتائج إعمال الرأي في فهم نصوص القرآن والسنة"⁴⁸.

خصائص التفسير في عصر التابعين:

يمكننا أن نسّم عصر التابعين بعدد من الخصائص منها ما يلي:

1. اعتمادهم على أهل الكتاب كمصدر تفسيري، وبسببه تسربت بعض الروايات الإسرائيلية والنصرانية إلى بعض التفاسير؛ ونتيجة توسع ديار الإسلام، ودخول العديد من الأعاجم في الإسلام، ومن بينهم أهل الكتاب الذين نقلوا معهم

⁴⁴ وقد اشتهر من تلاميذ ابن عباس بمكة: سعيد بن جبير، ومجاهد، وعكرمة مولى ابن عباس، وطاووس بن كيسان اليماني، وعطاء بن أبي رباح، ومما يروى عن مجاهد أنه كان يعطي عقله حرية واسعة في فهم بعض النصوص (انظر: المرجع السابق، ج1، ص80).

⁴⁵ اشتهر من بينهم ثلاثة، هم: زيد بن أسلم، وأبو العالية، ومحمد بن كعب القرظي.

⁴⁶ اشتهر من بينهم علقمة بن قيس، ومسروق، والأسود بن يزيد، ومُرّة الهمداني، وعامر الشعبي، والحسن البصري، وقتادة بن دعامة السدوسي.

⁴⁷ الذهبي، التفسير والمفسرون، ج1، ص89.

⁴⁸ الذهبي، ج1، ص89.

بعض الأقوال التي لا تمت إلى الحقيقة بشيء، والتي بدورها تسربت إلى كتب التفسير بشكل أو بآخر فيما بعد. مثل: أخبار بدء الخليفة، وأسرار الوجود، وبدء الكائنات. والحكايات والقصص. فزجوا في كتب التفسير كثيراً من هذه الإسرائيليات والنصرانيات بدون تحر ونقد، وهو مأخذ كبير على مدرسة التابعين الذين تساهلوا بهذه الخرافات.

2. ظل التفسير محتفظاً بهويته المأثورية وله طابع التلقي والرواية، إلا أنه لم يكن تلقياً ورواية بالمعنى الشامل، كعصر النبي ﷺ وأصحابه، بل كان تلقياً ورواية يغلب عليهما طابع الاختصاص، فأهل كل مصر يعنون بوجه خاص بالتلقي والرواية عن إمام مصرهم، المكيون عن ابن عباس، والمدنيون عن أبي، والعراقيون عن ابن مسعود. وهكذا.

3. ظهرت في هذا العصر نواة الخلاف المذهبي، والتي لم تكن موجودة مطلقاً في عصر الصحابة، فظهرت بعض تفسيرات تحمل في طياتها هذه المذاهب، فنجد مثلاً قتادة بن دعامة السدوسي ينسب إلى الخوض في القضاء والقدر ويتهم بأنه قدرى، ولا شك أن هذا أثر على تفسيره، ولهذا كان يتحرج بعض الناس من الرواية عنه. ونجد الحسن البصري قد فسر القرآن على إثبات القدر، ويكفر من يكذب به. يقول د. فضل عباس: "إن البذرة الأولى للتفسير بالرأي ظهرت في عهد التابعين، كما نراه مثلاً في بعض تفسيرات مجاهد".⁴⁹

4. كثرة الخلاف بين التابعين في التفسير عما كان بين الصحابة رضي الله عنهم، وإن كان اختلافاً قليلاً بالنسبة لما وقع بعد ذلك من متأخري المفسرين.⁵⁰ ولعل ذلك من

⁴⁹ د. فضل عباس، إتقان البرهان في علوم القرآن، (عمان: دار الفرقان، ط1، 1997م)، ج2، ص233.

⁵⁰ د. محمد حسين الذهبي، التفسير والمفسرون، ج1، ص97.

قبيل اختلاف التنوع، وليس من اختلاف التضاد⁵¹ إلا أن ذلك يقودنا أيضاً إلى قضية مهمة وهي نشوء النزعة الاجتهادية والتي تولى كبرها مدرسة الرأي في العراق وهذا الأمر قاد إلى تشكيل ملامح أخرى للتفسير المقاصدي تمثلت بالرأي والاجتهاد، والتوسع في الفهم المقاصدي للقرآن الكريم.

المرحلة الثالثة: "تبدأ المرحلة الثالثة للتفسير من مبدأ ظهور التدوين، وذلك في أواخر عهد بني أمية، وأول عهد للعباسيين"⁵².

لقد كان الطابع الغالب في عصر الصحابة والتابعين هو طابع الرواية والتلقين، حتى جاء عصر التدوين فدوّن التفسير على أنه باب أبواب الحديث، قال الذهبي: "ثم بعد عصر الصحابة والتابعين، خطا التفسير خطوة ثانية، وذلك حيث ابتدأ التدوين لحديث رسول الله ﷺ، فكانت أبوابه متنوعة، وكان التفسير باباً من هذه الأبواب التي اشتمل عليها الحديث"⁵³.

ثم خطا التفسير بعد ذلك خطوة أخرى انفصل بها عن الحديث، وأصبح علماً مستقلاً، "وتم ذلك على أيدي طائفة من العلماء منهم ابن ماجه المتوفى سنة 273هـ، وابن جرير الطبري المتوفى سنة 310هـ، وأبو بكر بن المنذر النيسابوري المتوفى سنة 318هـ، وابن أبي حاتم المتوفى سنة 327هـ، وأبو الشيخ بن حبان المتوفى سنة 369هـ، والحاكم المتوفى سنة 405هـ، وأبو بكر بن مردويه المتوفى سنة 410هـ،

⁵¹ المرجع السابق، ج1، ص96، بتصرف، وانظر: فهد بن عبد الرحمن الرومي، دراسات في علوم القرآن، (الرياض: المؤلف نفسه، ط16، 1430هـ/2009م)، ص167.

⁵² الذهبي، التفسير والمفسرون، ج1، ص104.

⁵³ الذهبي، ج1، ص104.

وغيرهم من أئمة هذا الشأن⁵⁴. وقد استصعب الذهبي أمر معرفة أول من دون في تفسير القرآن مرتباً⁵⁵.

انتقل التفسير في هذه المرحلة إلى خطوة أخرى وهي: تجاوز التفسير بالمأثور، بعد أن تجاوز التفسير بالإسناد، فصنف فيه خلق كثير، ونقلوا الروايات، دون أن ينسبوا إلى قائلها، واختصرت الأسانيد، ودخل الوضع في التفسير، واختلط الصحيح بالعليل، ثم ازداد الأمر شططاً حينما اختلط التفسير النقلى بالعقلي دون تفريق بينهما.

لقد ظهر التفسير العقلي في هذه المرحلة في البداية موافقاً لحدود المعاني اللغوية، والدلالات والمقاصد القرآنية، في مجال إعمال الأفهام، وترجيح الأقوال، وهذا ما يتبناه الاتجاه المقاصدي في التفسير، ثم انحرفت هذه النظرة تبعاً لاتساع العلوم والثقافات المختلفة فظهرت تفاسير بعيدة كل البعد عن التفسير تفسر القرآن بمجرد الرأي والهوى⁵⁶.

ولحاقاً بذلك دخل في التفسير في هذه المرحلة التعصب المذهبي، والفرق الإسلامية، والعلوم والفنون المختلفة، فدخل في التفسير من كل ذلك شيء مما لا يمت إلى التفسير بصلة، ولذا نجد الذهبي يوضح هذا بجلاء فيقول: "وهكذا تدرج التفسير، واتجهت الكتب المؤلفة فيه اتجاهات متنوعة، وتحكمت الاصطلاحات العلمية، والعقائد المذهبية في عبارات القرآن الكريم، فظهرت آثار الثقافة الفلسفية والعلمية

⁵⁴ انظر: المرجع السابق، ج1، ص105.

⁵⁵ انظر: المرجع السابق، ج1، ص105-106.

⁵⁶ انظر: فهد بن عبد الرحمن الرومي، أصول التفسير ومناهجه، (الرياض: د.ن، ط9، 1430هـ/2009م)، ص100.

للمسلمين في تفسير القرآن، كما ظهرت آثار التصوف واضحة فيه، وكما ظهرت آثار التَّحَلُّ والأهواء فيه ظهوراً جلياً⁵⁷.

وكان ممَّا ظهر في هذه المرحلة التفسير الموضوعي الذي حاول من خلاله رواه حصر التفسير في زوايا محدودة، فظهر مثلاً لابن القيم كتاباً أسماه "التبيان في أقسام القرآن"، ولأبي عبيدة كتاباً أسماه "مجاز القرآن"، وللراغب الأصفهاني مؤلفاً عنوانه "المفردات في غريب القرآن"، وأبو جعفر النحاس "الناسخ والمنسوخ في القرآن"، وغيرها من المصنفات التي سلكت مسلك التفسير الموضوعي. ويمكن تقسيم أنواع التفسير في هذه المرحلة إلى أنواع⁵⁸ وهي: التفسير بالمأثور، والتفسير بالرأي وينقسم إلى قسمين: رأي محمود ورأي مذموم، والتفسير العلمي، والتفسير الفقهي، والتفسير الموضوعي، ولكل نوع من هذه الأنواع خصائص ومميزات، ليس الحديث عنها مناسباً في هذا الموضوع.

أسباب ضعف التفسير بعد التابعين:

- ظهور الوضع وأثره البالغ على مسألة تضعيف روايات التفسير. فالوضع نشأ عن الخلاف المذهبي الذي لعبت فيه السياسة دوراً هاماً.
- انتشار الإسرائيليات وتضخمها، والذي ساهم في انتشارها حذف الأسانيد، وأول من سن هذه السنة السيئة هو مقاتل بن سليمان صاحب التفسير الكبير، فقد حذف الأسانيد وملاً تفسيره بروايات عن أهل الكتاب، وجاء بعده من نقل عنه هذه الروايات غير مميز بين صحيحها وضعيفها وغثها وسمينها⁵⁹. وقد

⁵⁷ الذهبي، التفسير والمفسرون، ج1، ص108.

⁵⁸ سوف يتم تناول هذه الأنواع في المبحث القادم: الفرق بين التفسير المقاصدي وغيره من أنواع التفاسير.

⁵⁹ د. فضل عباس: إتقان البرهان في علوم القرآن، ج2، ص: 235-236.

مثلت هذه المرحلة منعطفاً مهماً للتفسير المقاصدي تمثل في نشوء التفسير الموضوعي الذي يتناول القضايا حسب المقاصد القرآنية.

المرحلة الرابعة: عاش التفسير فترة غير قصيرة من الزمن بعد مرحلة التدوين في حالة من الركود والجمود، وانعدام التطور والتجديد، ولعل من أهم الأسباب وراء ذلك كله هو أن الأولين لم يدعوا شيئاً إلا وتكلموا فيه من شتى النواحي في التفسير، مما لم يدع مجالاً للمتأخرين في التصنيف والتأليف، وقد يكون هذا الأمر صائباً من ناحية، ولكن إذا نظرنا في الأسباب الأخرى وراء تأخر التجديد في علم التفسير نجد أن تناقل الأقوال حول القول في التفسير بالرأي وتأثير صاحبها قد ساهمت بشكل واضح في توقف حركة التجديد في التفسير.

حتى جاء عصر النهضة العلمية الحديثة فانطلقت دعوات التجديد من هنا وهناك، محاولة كسر حواجز الجمود والركود، فاتجهت أنظار العلماء حاملة رؤى أخرى، وتطلعات عالية نحو الجديد في علم التفسير معتمداً على تفاسير الأولين؛ حيث لا يسع العقلاء إنكار جهودهم الضخمة في التفسير بالمأثور، والتفسير بالرأي، والتفسير الفقهي، والموضوعي، وغير ذلك مما ورد عنهم في التفسير.

اتجهت عجلة التقدم العلمي نحو ألوان شتى، واتجاهات متعددة من التفسير فظهر الاتجاه المقاصدي في التفسير، والاتجاه الهدائي، والاتجاه الاجتماعي الأدبي، والاتجاه الشرعي، وتدافعت بقوة نحو الماضي قدماً للسير في ركب التجديد؛ لتثبت أن التفسير علمٌ متجدد، وأن القرآن صالح لكل زمان ومكان، فكذلك التفسير الأصل فيه التجدد وملازمة أحوال الأمم والأحداث والوقائع⁶⁰.

⁶⁰ لقد كان معظم التفاسير الحديثة نتاجاً للواقع، وإفرازاً من إفرازات المطالب المتجددة، والحوادث المستجدة التي طرأت على حياة الناس.

لقد كان للعوامل الدينية والفكرية، والأحوال والأوضاع المتقلبة، دور في تطور اتجاهات التفسير الحديثة، كما كان هناك آثاراً أخرى أثرت على حركة التفسير الحديثة كما يوضح ذلك الذهبي بقوله: "وهناك غير هذه الآثار آثار أخرى ظهرت في الاتجاه التفسيري في هذا العصر الحديث، نشأت عن عوامل مختلفة، أهمها: التوسع العلمي، والتأثر بالمذهب والعقيدة، والإلحاد الذي قام على حرية الرأي الفاسد"⁶¹. وقد تمثلت الألوان التفسيرية الحديثة في قوالب تمحورت فيما يأتي:

اللون العلمي في التفسير، واللون المذهبي، واللون الإلحادي، واللون الاجتماعي الأدبي⁶².

ولعل اللون المقاصدي في التفسير يعتبر من أهم ألوان التفسير المعاصر، وقد بدا ظاهراً ضمن اللون الاجتماعي الأدبي، وإن شئت فقل ضمن اللون الموضوعي، والحق له أن يفرد بلون خاص لأهميته ومكانته، وللحاجة الماسة لمواجهة حملات التضليل التي تشنها دوائر الاستشراق، والموجة العلمانية الحديثة.

ثانياً نشأة التفسير المقاصدي:

لقد أعطى الحديث الذي سبق حول نشأة التفسير عموماً صورة تكاد تكون واضحة حول تطور مراحل نشوء التفسير، ولقد تحدث الباحث ضمناً من ذلك لمحات حول نشأة التفسير المقاصدي، ولعل المقام هنا يناسب توضيح أكثر حول نشأة التفسير المقاصدي، حتى تكتمل الصورة ويتضح الأمر.

⁶¹ الذهبي، التفسير والمفسرون، خاتمة الكتاب.

⁶² انظر: المرجع السابق، ج2، ص417-482.

إنَّ نظرة سريعة حول التفسير في مرحلته الأولى تدلنا كيف أنَّ المقاصد القرآنية كانت تفهم عند الرعييل الأول من الصحابة بمجرد السليقة، وكيف كانوا يستعملون الأفهام في قراءة النصوص، والاستنباط منها مع ما يراعي المصالح الكلية التي جاء التشريع من أجلها، ولا مجال هنا للاستدلال على ذلك، لكن منهجهم في التأويل هو تجنب الإفراط في مسألة العدول عن ظواهر النصوص، ولم يبالغوا في البحث عن التفسير المقاصدي، وكانوا يعولون بشكل معتدل على ما وراء النصوص والأدلة من معان ومصالح من غير قيود وحدود. وكانوا من غير منازع هم الأجدد والأقرب والأقدر على فهم مقاصد القرآن الكريم لقربهم من عهد الوحي.

ومن ناحية أخرى فقد كان من مصادر التفسير لدى الصحابة الاجتهاد وقوة الاستنباط، كما سلف ذكر ذلك، وبناءً على ذلك يمكننا القول إنَّ نشأة التفسير المقاصدي تعود في أساسها إلى تفسير الصحابة، وتطبيقهم العملي لمقتضى المقاصد في التفسير، ويدل على ذلك صنيع أبي بكر الصديق رضي الله عنه في جمع القرآن لما كان المقصد من ذلك هو حفظ القرآن في السطور عندما استحرَّ القتل بالقرءاء يوم اليمامة، والأعمال التي قام بها عمر بن الخطاب رضي الله عنه ⁶³ طبقاً لقواعد المقاصد القرآنية.

وبالتأمل في تطور حركة التفسير في المرحلة الثانية فقد تطور الاتجاه المقاصدي كذلك تبعاً لتطور التفسير، وظهور المدارس التفسيرية: مدرسة عبد الله بن عباس في مكة، وأبي بن كعب في المدينة، وعبد الله بن مسعود في العراق. وبالنظر لمدرسة الرأي في العراق والتي مثلت منعطفاً للتفسير بالرأي وتطوره، وأسهمت في تطور

63 ومن الأعمال التي قام بها عمر بن الخطاب رضي الله عنه بناءً على قواعد المقاصد القرآنية: سن التاريخ الهجري، وبناء السجون، وإنشاء الدواوين، وتعيين الولاة، وغير ذلك.

التفسير والاجتهاد والاستنباط فيه. كما أن (مجاهد رضي الله عنه)، وإعماله في كثير من المسائل التفسيرية للعقل الذي يدور في حدود مقاصد الشريعة دليل على تطبيق فحوى المقاصد ومضمونها في التفسير. ثم مرحلة التدوين وما صاحبها من التطور في تدوين العلوم المختلفة، ومنها التفسير قد أفرزت لنا أقوالاً تفسيرية مصحوبة بالمقاصد أو في مرادفاتهما كما في تفسير الطبري⁶⁴، وكما جاء في تفاسير أهل الرأي الحمود شيئاً من المقاصد.

وفي القرن الخامس الهجري كان للإمام أبو حامد الغزالي أثراً بالغاً في الدعوة إلى إعمال المقاصد، وقد انتقد على الفقهاء صنيعهم في تجريد النص القرآني من المقاصد التي تظهر حلاوة المعنى، وقبول الأحكام⁶⁵.

ولقد كان لنشأة الفقه وأصوله دوراً في نشأة المقاصد، ونضوج فكرتها، كما اشتهر ذلك عن مذهب الإمام مالك الذي يطلق عليه الكثير من الأصوليين "مذهب المقاصد الأول"⁶⁶. ويبرز ذلك جلياً من خلال تناول علماء الأصول للمقاصد في تصانيفهم، كصنيع الجويني في البرهان، والشاطبي في الموافقات، والآمدي في الفروق.

⁶⁴ سوف يأتي ذكر نماذج مما في تفسير الطبري في الفصل الآتي.

⁶⁵ حيث يقول الإمام الغزالي: "هناك التفسير الفقهي للقرآن، وهو تفسير طوع الآيات لأحكام الفقهاء وطريقتهم في الاستنباط، ولم يهتم إلا بآيات الأحكام التشريعية، واقتصر في ذلك على الحكم الشرعي، دون النظر إلى المقاصد الأخرى، وهذا فيه شيء يستدعي الاستدراك" (انظر: محمد الغزالي، كيف نتعامل مع القرآن الكريم، ص40).

⁶⁶ انظر: الريسوني، نظرية المقاصد عند الإمام الشاطبي، ص73.

وكما جرى هذا اللفظ (أعني لفظ المقاصد) على ألسنة الأئمة المتقدمين: كالإمام الجويني⁶⁷، والإمام الغزالي⁶⁸، وسلطان العلماء العز بن عبد السلام⁶⁹، إلى أن اتضحت الفكرة واكتملت على يد الإمام الشاطبي⁷⁰، ونضجت على يد الإمام ابن عاشور والذي نادى باستقلالية علم المقاصد⁷¹.

وليس من المناسب الإسهاب في الحديث حول الجانب المقاصدي لدى الأصوليين، ولكن المقام كذلك يستلزم الإيضاح حول مقاصد القرآن عندهم ولو بالشيء القليل "فإن ما لا يدرك جلّه لا يترك كله"، فمثلاً نجد أن العز بن عبد السلام قد تحدث عن مقاصد القرآن في تصانيفه حيث يقول: "ومعظم مقاصد القرآن الأمر باكتساب المصالح وأسبابها، والزجر عن اكتساب المفاسد وأسبابها، فلا نسبة بمصالح الدنيا ومفاسدها إلى مصالح الآخرة ومفاسدها، لأن مصالح الآخرة خلود الجنان ورضا الرحمن، مع النظر إلى وجهه الكريم، فيا له من نعيم مقيم، ومفاسدها خلود النيران وسخط الديان مع الحجب عن النظر إلى وجهه الكريم، فيا له من عذاب أليم"⁷²، ونجد الإمام الشاطبي يذكر مقاصد القرآن عند حديثه حول الآية: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا﴾ [محمد: 24]. حيث يقول: "فالتدبر إنما

⁶⁷ انظر: عبد الملك بن عبد الله الجويني أبو المعالي، البرهان في أصول الفقه، تحقيق: د. عبد العظيم محمود الديب، (المنصورة: دار الوفاء، ط4، 1418هـ)، ج1، ص206.

⁶⁸ انظر: محمد بن محمد الغزالي أبو حامد، المستصفى في علم الأصول، تحقيق: محمد عبد السلام عبد الشافي، (بيروت: دار الكتب العلمية، ط1، 1413هـ)، ص25.

⁶⁹ انظر: العز ابن عبد السلام، قواعد الأحكام في مصالح الأنام، ج1، ص31.

⁷⁰ انظر: إبراهيم بن موسى الشاطبي، الموافقات، ج1، ص3.

⁷¹ انظر: محمد الطاهر ابن عاشور، مقاصد الشريعة الإسلامية، ص118.

⁷² العز ابن عبد السلام، قواعد الأحكام في مصالح الأنام، ج1، ص7.

يكون لمن التفت إلى المقاصد، وذلك ظاهر في أنهم أعرضوا عن مقاصد القرآن؛ فلم يحصل منهم تدبر⁷³

وبالتنظر إلى المرحلة المعاصرة في التفسير نجد أن الثروة العلمية في عهد الشيخ محمد عبده وتلميذه رشيد رضا، والشيخ حسن البنا، قد لعبت دوراً ملموساً في إعادة إحياء روح المعاني القرآنية، ومقاصد القرآن الكريم، بل طبقت في تفاسير أولئك، وكانت من الميزات التي تميز أعمالهم.

لقد مثلت النهضة العلمية منطلقاً من منطلقات التجديد في التفسير المقاصدي، وتقعيداً لمسألة إعمال المقاصد في التفسير، وقد ظهر ذلك جلياً في تفسير المنار، وفي كتابات منها: "مقاصد القرآن الكريم" للشيخ حسن البنا⁷⁴، وكتاب "الوحي الحمدي" لرشيد رضا⁷⁵، وكتاب "النبا العظيم" لمحمد عبد الله دراز⁷⁶، وغيرها من الكتب.

كان هذا في المشرق العربي، أما في المغرب العربي فقد أثرت الحركة التنويرية في شخصية الإمام الطاهر بن عاشور فأقبل على تأليف تفسيره: "تحرير المعنى السديد، وتنوير العقل الجديد، بتفسير الكتاب المجيد" والذي اختصر اسمه بعد ذلك إلى "التحرير والتنوير" والذي يقول عنه مؤلفه: "فجعلت حقاً علي أن أبدي في تفسير القرآن نكتاً لم أر من سبقني إليها، وأن أقف موقف الحكم بين طوائف المفسرين تارة لها وآونة

⁷³ انظر: إبراهيم بن موسى الشاطبي، الموافقات، ج4، ص209.

⁷⁴ انظر: حسن عبد الرحمن البنا، مقاصد القرآن الكريم، ص29.

⁷⁵ انظر: محمد رشيد رضا، الوحي الحمدي، (مصر: مؤسسة عز الدين للطباعة والنشر، ط2، 1352هـ)، ص191.

⁷⁶ انظر: محمد عبد الله دراز، النبا العظيم، تحقيق: عبد الحميد الدخاخي، (الرياض: دار طيبة للنشر والتوزيع، ط1، 1417هـ/1997م) ص216.

عليها، فإن الاقتصار على الحديث المعاد، تعطيل لفيض القرآن الذي ما له من نفاذ⁷⁷، وقد أظهر فيه ابن عاشور اتجاهًا مقاصدياً بارز المعالم، واضح الأثر، وكان للمقاصد حظاً وافراً في منهجية المصنف عند كتابته لمقدمات تفسيره، وأثناء تفسيره للآيات.

ومن النماذج على هذا التفسير المقاصدي ما قام به ابن عاشور رحمه في تفسيره، حيث برز اهتمامه بالمقاصد بطريقة لم توجد عند غيره من المفسرين، ويمكن القول أن المقاصد أخذت عليه فكره، وجل اهتمامه حين كان يفسر الآيات، ولذلك تراها غالباً في كل آية من تفسيره⁷⁸، حتى ليكاد نطلق عليه التفسير المقاصدي للقرآن الكريم، فحين فسر قوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِّنْ عِنْدِ رَبِّنَا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ﴾ [آل عمران: 7] وبعد أن تكلم عن التشابه والإحكام في القرآن، قال: "إن من مقاصد القرآن أمرين: الأول: كونه شريعة دائمة، وذلك يقتضي فتح أبواب عباراته لمختلف استنباط المستنبطين، حتى تؤخذ منه أحكام الأولين والآخرين. والثاني: تعويد حملة هذه الشريعة وعلماء هذه الأمة بالتنقيب، والبحث، واستخراج المقاصد من عويصات الأدلة، حتى تكون طبقات علماء الأمة صالحة - في كل زمان - لفهم تشريع الشارع، ومقصده من التشريع، فيكونوا قادرين على استنباط الأحكام التشريعية، ولو صيغ لهم التشريع في أسلوب سهل التناول، لا اعتادوا العكوف على ما بين أنظارهم في المطالعة الواحدة.

⁷⁷ انظر: ابن عاشور، التحرير والتنوير، ج1، ص7.

⁷⁸ ابن عاشور، التحرير والتنوير، ج1، ص364. قال: لأن المقصود من ذلك أخذ العهد على أهمهم.

من أجل هذا كانت صلوحية عباراته لاختلاف منازع المجتهدين، قائمة مقام تلاحق المؤلفين في تدوين كتب العلوم، تبعاً لاختلاف مراتب العصور⁷⁹.

وحين فسر قوله تعالى: ﴿أَمَّنْ يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاءَ الْأَرْضِ إِلَهٌ مَّعَ اللَّهِ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ﴾ [النمل: 62]. قال: "إن هناك ثلاثة أنواع لأحوال البشر، هي: حالة الاحتياج، وحالة البؤس، وحالة الانتفاع. فالأولى: حالة الاحتياج: هي المضمنة في قوله تعالى: ﴿أَمَّنْ يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ﴾ فالمضطر هو ذو الضرورة، أي الحالة المحوجة إلى الأشياء العسرة الحصول، وهذه مرتبة الحاجيات، فالمرء محتاج إلى أمور كثيرة، بما قوام أوده ليست متصلة بذاته، مثل: الأقوات، والنكاح، والملابس اللازمة. والمعنى: أن المضطر إذا دعا لتحصيل ما اضطر إليه فإنه لا يجيبه إلا الله، بقطع النظر عن كونه يجيب بعضاً ويؤخر بعضاً. وحالة البؤس: هي المشار إليها بقوله تعالى: ﴿وَيَكْشِفُ السُّوءَ﴾ وهذه مرتبة الضروري، فإن معظمها أو جميعها حفظ من تطرق السوء إلى مهم أحوال الناس، مثل الكليات وهي: حفظ الدين والنفس، والعقل، والنسب، والمال، والعرض. والمعنى: أن الله يكشف السوء عن المسوء. وحالة الانتفاع: هي المشار إليها بقوله: ﴿وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاءَ الْأَرْضِ﴾ [النمل: 62] أي يجعلكم تعمرون الأرض، وتجتنون منافعها، وهذه مرتبة التحسيني. وقد جمعت الآية الإشارة إلى مراتب المناسب، وهو ما يجلب نفعاً أو يدفع ضرراً، وهو من مسالك العلة في أصول الفقه⁸⁰.

بيان أغراض السورة القرآنية: ومن أساليب التفسير المقاصدي أن المفسر يهتم ببيان أغراض السورة القرآنية، وهذا ما فعله ابن عاشور رحمه الله، فقد عبر عن

⁷⁹ ابن عاشور، التحرير والتنوير، ج3، ص18.

⁸⁰ ابن عاشور، التحرير والتنوير، ج19، ص289-290.

اهتمامه بأغراض السور القرآنية، ورأيناه واضحاً في العناوين الكثيرة للسور القرآنية في تفسيره، حيث يكتب أغراضها، ويقصد أغراض السورة التي بدأ بتفسيرها، فانظر: مثلاً جزء عم كاملاً يتناول كل سورة على حدة، ذاكراً أسماءها وترتيبها في النزول، وأسباب نزولها وعدد آياتها ومكية أو مدنية ثم بعد ذلك يذكر أغراضها، ولنأخذ مثلاً أغراض سورة النبأ، قال: "اشتملت هذه السورة على وصف حوض المشركين في شأن القرآن، وما جاء به مما يخالف معتقداتهم، ومن ذلك إثبات البعث، وسؤال بعضهم بعضاً عن الرأي في وقوعه مستهزئين بالإخبار عن وقوعه. وتهديدهم على استهزائهم. وفيها: إقامة الحجة على إمكان البعث بخلق المخلوقات التي هي أعظم من خلق الإنسان بعد موته، وبالخلق الأول للإنسان وأحواله. ووصف الأحوال الحاصلة عند البعث من عذاب الطاغين مع مقابلة ذلك بوصف نعيم المؤمنين. وصفة يوم الحشر إنذاراً للذين جحدوا به، والإيماء إلى أنهم يعاقبون بعذاب قريب قبل عذاب يوم البعث. وأدمج في ذلك أن علم الله تعالى محيط بكل شيء، ومن جملة الأشياء أعمال الناس". وأحياناً يذكر لفظة الغرض حين يفسر الآيات، فيقول عند تفسيره لقوله تعالى: ﴿رَبِّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا الرَّحْمَنِ لَا يَمْلِكُونَ مِنْهُ خِطَابًا﴾ [النبأ: 37]، والغرض من ذكر هذا إبطال اعتذار المشركين، حين استشعروا شناعة عبادتهم الأصنام التي شهّر القرآن بها، فقالوا: ﴿هُؤُلَاءِ شُفَعَاؤُنَا عِنْدَ اللَّهِ﴾ [يونس: 18] وقالوا: ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى﴾ [الزمر: 3]، هذه من المواطن التي أبدع فيها ابن عاشور، وجعلت منهجه في التفسير منهجاً إبداعياً خلقت منه كتب التفسير على الأغلب. ولهذا كان أحياناً يستشهد بأقوال الشاطبي ليقرر مسائل اختلف فيها، مثل قضية التشابه والإحكام.

وأحياناً يقتبس مباشرة من الشاطبي، ليؤكد الفكرة التي يريد أن يثبثها في ثنايا الكتاب، فيقول: "هذا وقد نقل أبو إسحاق الشاطبي في "الموافقات" عن جمهور الفقهاء والمتكلمين، أن أحكام الله تعالى معللة بالمصالح ودرء المفاسد، وقد جمع الأقوال الشيخ ابن عرفة في "تفسيره" فقال: "هذا هو تعليل أفعال الله تعالى، وفيه خلاف، وأما أحكامه فمعللة"⁸¹.

وهكذا نشأ التفسير المقاصدي في رحم التفسير بمعناه العام، وتطور كما لاحظنا حتى وصل إلى ما وصل إليه.

الاهتمام بالمقاصد القرآنية في التفسير: وهذا الفن برع فيه عدد من العلماء والمفكرين ومن اشتهر من العلماء بتفسير النصوص مع مراعاة مقاصد الشريعة:

(1) الإمام أبو المعالي الجويني: في كتابه غياث الأمم في التياث الظلم؛ حيث عُنِيَ فيه ببيان مرتبة الحاجيات من مراتب الطلب الشرعي، في دائرة السياسة الشرعية.

(2) الإمام أبو بكر ابن العربي: وذلك في شروحاته الحديثية كالمسالك والقبس كلاهما على الموطأ، وكذا في عارضة الأحوذى في شرح جامع الترمذي، وكذلك في أحكام القرآن.

(3) الإمام عز الدين ابن عبد السلام: في قواعد الأحكام في مصالح الأنام، المعروف ب: القواعد الكبرى، وقد أبدع في هذا الكتاب وأشبع الكلام عن مقاصد الشارع وأثرها في تفسير النصوص.

(4) الإمام القرافي: في الفروق والذخيرة.

⁸¹ ابن عاشور، التحرير والتنوير، ج1، ص375.

(5) شيخ الإسلام ابن تيمية: وهذا واضح في مواضع كثيرة من مجموع الفتاوى ومن الفتاوى الكبرى، على ما بينهما من تداخل أحياناً، لا سيما في الرسالة الماردينية، وفي القواعد الكبرى وغيرها.

(6) الإمام ابن القيم: لا سيما في كتابه الفذ أعلام الموقعين عند الكلام على رفع الحرج وسد الذرائع ومنع الحيل الشرعية.

(7) الإمام الشاطبي: في الموافقات.

(8) الإمام الشيخ محمد الطاهر ابن عاشور: فأصل لموضوع المقاصد في كتابه الممتع "مقاصد الشريعة الإسلامية" وطبق هذه الأصول في كتابه: "أصول النظام الاجتماعي في الإسلام"⁸².

أوجز ابن عاشور المقاصد الأصلية التي جاء بها القرآن الكريم في ثمانية مقاصد رئيسة، هي:

أولاً: إصلاح الاعتقاد وتعليم العقد الصحيح لأنه أعظم سبب لإصلاح الخلق، لأنه يزيل عن النفس عادة الإذعان لغير ما قام عليه الدليل، ويطهر القلب من الأوهام الناشئة عن الإشراك.

ثانياً: تهذيب الأخلاق: وهذا المقصد قد فهمه العرب بله خاصة الصحابة.

ثالثاً: التشريع وهو الأحكام الخاصة وعامة، ولقد جمع القرآن جميع الأحكام كلياً في الغالب وجزئياً في المهم.

رابعاً: سياسة الأمة وهو باب عظيم في القرآن، يقصد منه صلاح الأمة وحفظ نظامها.

⁸² <http://majles.alukah.net/showthread.php?t=12451>. Accessed on 09-November-2011.

خامساً: القصص وأخبار الأمم السالفة للتأسي بصالح أحوالهم والتحذير من مساوئهم.

سادساً: التعليم بما يناسب حالة عصر المخاطبين، وما يؤهلهم إلى تلقي الشريعة ونشرها، وقد زاد القرآن على ذلك تعليم حكمة ميزان العقول وصحة الاستدلال في أفانين مجادلاته للضالين، وفي دعوته إلى النظر، ثم نوه بشأن الحكمة. سابعاً: المواعظ في التحذير والتبشير، وهذا يأتي من خلال آيات الوعد والوعيد، وكذلك المحاجة والمجادلة للمعاندين، وهذا باب في الترغيب والترهيب.

ثامناً: الإعجاز بالقرآن، ليكون آية دالة على صدق الرسول الكريم □ إذ التصديق يتوقف على دلالة المعجزة بعد التحدي. وبهذه المعرفة للمقاصد تسقط ورقة أصحاب المدرسة الحرفية واللفظية، والتي تأخذ بحرفية الشيء ولا تبالي بالفحوى، باعتبارها مدرسة ضيقة تهمل المقصد⁸³.

وظهر كذلك استعمال المقاصد في منهج عدد منهم كالتفسير الأدبي الاجتماعي لسيد قطب "في ظلال القرآن"، وتفسير سعيد حوى "الأساس في التفسير"، وغيرهما.

نتائج البحث

توصل الباحثان إلى النتائج الآتية:

1. إن التفسير المقاصدي للقرآن الكريم يعتبر نوعاً مهماً لعرض هدايات القرآن الكريم ويكشف عن أسرارها التي تقود العقل والقلب إلى مصدرية القرآن الربانية ويبين كيف جاء القرآن لمراعاة الصلاح للبشر ودفع الفساد عنهم.

⁸³ ابن عاشور، التحرير والتنوير، ج1، ص38.

2. أثبت البحث أن التركيز على مقاصد القرآن الأصلية في العملية التفسيرية من أهم الأدوات التي يجب أن يتسلح بها المفسر لما لها من أثر بالغ في التعامل الحسن مع القرآن الكريم وفهم مقاصده.
3. إن التعريف الأنسب للتفسير المقاصدي هو: ذلك النوع من التفسير الذي يبحث في معاني ألفاظ القرآن الكريم، وتوسيع دلالاتها اللغوية، مع بيان الحكم والغايات التي أنزل من أجلها القرآن وشرعت من أجلها الأحكام.
4. إن نشأة التفسير المقاصدي تعود في أساسها إلى تفسير الصحابة، وتطبيقهم العملي لمقتضى المقاصد في التفسير، ويدل على ذلك صنيع أبي بكر الصديق رضي الله عنه في جمع القرآن لما كان المقصد من ذلك هو حفظ القرآن في السطور عندما استحرّ القتل بالقرءاء يوم اليمامة، والأعمال التي قام بها عمر بن الخطاب رضي الله عنه طبقاً لقواعد المقاصد القرآنية.
5. إن كل مرحلة من المراحل التفسيرية مثلت منعطفاً مهماً في مسيرة التفسير المقاصدي، واتسمت بخصائص ومميزات أضفت الجديد والمفيد، وأسهمت في التأصيل لهذا النوع التفسيري.